ماذا أعددنا للطفولة ؟

للاستاذ محمد العشماوي بك

تحدثنا في شأن الطفولة أحاديث شتى وتناولنا بالدرس نواحيها المختلفة . ولكنها مع ذلك في حاجة إلى مواصلة الدرس ومتابعة الحديث ، فاننا اذا أغفلنا الطفولة ، ولم نولها من العناية أوفر قسط ، كان مثلنا كمثل من يفرط في رأس ماله لا يلبث أن يُعدم عما قليل

وأوجب ما يجب على المصلح قبل الدعوة إلى الاصلاح وقبل المشاركة فيه أن يلقي نظرة فاحصة على الميدان الذي يقبل عليه وإلاّ كان مثله كمثل قائد جيش في معركة لم يزوّد بدراسة وافية لميدان القتال حتى يعد له ما يكافئه من جنود وعتاد . فاذا أعددنا نحن للطفولة ؟ هل أعدتنا القادة ؟ وإذا كان بعض الدعاة إلى الاصلاح قد اختاروا هذا الميدان لنشاطهم الاجتماعي فهل توافرت لهم دراسة الطفولة دراسة مستندة إلى بحوث تربوية وخلقية وصحية واقتصادية ، وهل تعرّفوا طفولة الريف والحضر ، وهل تعرّفوا طفولة الفقر والغنى ، وهل تعرّفوا الطفولة في معاهد التعليم ما أُعدّ منها لعامة الناس وما أُعدّ للخاصة ، وهل تعرّفوا الطفولة المجرمة أو التي على أبواب الاجرام وكيف يقضى تجنيبها هذا المصير ، وهل قرنوا الدراسة بموازنة بين أحوالنا وأحوال الأمم الأخرى في هذه السبيل ، وتبينوا كيف أنقذ غيرنا الطفولة وأنشأوها صالحة تنبت في الغد رجالاً صالحين ؟؟

الحق أننا لا نزال في ميدان إصلاح الطفولة نرتجل ونتخبط . وما نقيمه من المؤتمرات ضيق الدائرة سطحي الدراسة ، وهو مع ذلك لا يلقى عناية من أحد ، فلا اشتراك فيما اثمر فيه المؤتمرون ، ولا تنفيذ لما هداهم اليه الدرس من الخطط والقرارات

هذا على حين أن الطفولة في طبيعة المشكلات التي تتقاضانا مزيداً من الرعاية والاهتمام

فعلينا أولاً أن نعد القادة الذين نعهد اليهم في القيام بالاصلاح فنزوّدهم بدراسات وافية تمكنهم من تعرف الادواء ووسائل العلاج . ولكن تجاربنا لهم في دائرة ضيقة حتى يؤتي الجهد ثمرته . أمامهم مثلاً مرحلة التعليم الأولي والابتدائي وهي مرحلة حضانة للطفل . فهل

نجد هنا الآن طابع الطفولة في تيسير اسباب اللهو وتنشيط المشاعر وتربية الملكات الفضلة ، وهل وكانا التعليم الاولي والابتدائي الى النساء ؟ يخيل اليّ ان الطفل في مرحلة التعليم الاولي والابتدائي يجد صعوبة في التدريس وعسراً في الفهم وإعاقي حياة لا تلائم حاله كل الملاءمة . فهذه المرحلة من التعليم تموزها الاركان الاساسية لدور الحضانة . تموزها جهود المرأة وروحها ورعايتها . ويكفي القاء نظرة على التعليم الابتدائي والثانوي ليظهر ضعف الفوارق بينهما . في الروح والجو وظروف المكان

والطفل في مرحلة التعليم الابتدائي لاغنى له عن اللهو فهو من عوامل نمائه العقلي والخلقي ومن واجبنا ان نعنى اذن بلهو الطفل حتى يعود وسيلة للتثقيف والتربية ينمّي فيه الذوق وحب النظافة ودقة الملاحظة وبعد النظر . وعلينا ألاّ نفرض اللهو عليه فرضاً كالتعليم بل ندعه يقبل عليه في رغبة وشغف، بيد أننا نقف منه على مرقبة فنجنبه اللهو الضار المفسد لمشاعره وأخلاقه . فهل نهضنا من ذلك بشيء ؟ هذه رياض الاطفال قائمة . وأشهد أنها محاولة موفقة ، ولكن ما عددها ؟ وما عدد الاطفال الذين يتفيأون ظلها ؟ انها ارستقراطية مترفة نعنى فيها بالعشرات او المئات لا بالآلاف والملايين .... فاذا شئنا صلاحاً فلنجعل التعليم الاولي كله رياض أطفال للفقراء ولنبتعد في أوضاعها عن الزخرف . ولنجر في أنظمتها على البساط حتى تدنو من مستوى أولئك الاطفال فنستطيع فيما بعد النهوض بهم الى المستوى الاجتماعي اللائق

لقد كنت أرغب عن كثب ما أعد للاطفال من معاهد، فأرى معاهد التعليم الأولي تضم مليوناً من الاطفال على حين ان الذين في سن التعليم الاولي كما أعلم يقربون من ثلاثة ملايين أو أكثر، وإذن فهناك مليونان لا يأخذون من هذا التعليم قسطهم الضروري . واني اسأل نفسي هل أعدت مدارس التعليم الأولي لتربية الطفولة ، وهل هيء أساتذتها لهذه المهمة السامية ، وهل جهزت أمكنتها صالحة وافية ، وهل وضعت برامجها نافعة مجدية ؟ إني لارجو ألاّ أكون ظالماً للتعليم الأولي اذا قلت ان كثيراً من معاهده وعلى الاخص في الاقاليم محابس يحشر فيها الاطفال كرهاً على الرغم من ذويهم الفقراء الى عوزهم . يحشر الطفل السليم هناك مع المريض الشاذ ، والذكي الى جانب الغبي ، والصغير مع الكبير ، فاذا قضى أولئك فترة في هذه المحابس غادروها الى محيط الجهالة والامية لا تدري ماذا أفادوا ولا يدرون السبيل الى الانتفاع بما يكونون قد درسوه . ثم اذا بهذا المحيط يطغى عليهم فيعودون أميين كما كانوا .... وكثيراً ما كانت تروعني هذه الحال ، فلا أبرح أدعو الى ضرورة وضع أسس جديدة للتعليم الأولي تجعله منبراً في الحياة فاصلاح العشر خير من افساد الجميع . وقد نبتت فكرة ترمي الى ان يوكل التعليم الأولي الى النساء خاصة ، فهنّ على القيام بأغراضه أقدر ، ولعلنا

حينما هذه الفكرة وجهرت بأن لحضانة الطفل فترة مقررة يقضيها في أحضان الطبيعة فكيف نلقي به خلالها في يد الرجل . فكان الجواب في محو هذا التعليم الهناف بسقوط تأثيث التعليم الأولي !!

ولنترك التعليم الأولي جانباً فله رجاله الموكلون به ، ولنرجو لهم التوفيق فيما يبذلونه في اصلاحه من جهود مشكورة ، ونحب أن تؤتي ثمرتها قريباً ، ولننظر في أعددناه من مؤسسات للطفولة والأمومة . كل ما أعددناه مستوصفات قليلة العدد في بعض العواصم ومستشفيات محدودة العدد في الأقاليم لا تتسع لشعب مريض ، يقوم عليها أطباء لم يتفرغوا لهذا الواجب كل التفرغ ولا يفي عددهم بالحاجة ، وبها عيادات خارجية لا تستطيع ان تنهض بهذا العبء وبذلك لا يتسع الوقت ولا تتوافر الوسائل الكافية لتفحص أو تشخيص مثمر مما قد يؤدي إلى إعطاء الدواء ارتجالاً ان أفاد مرة فقد يضر بضع مرات . وهناك الحوامل من الفقيرات وأوساط الناس لا يلقين رعاية في الحمل والولادة والرضاعة ، وربما كان القليل من هذا ميسوراً في الحواضر على طريقتنا في الاصلاح نرفه عن المدن ونحرم الريف فلا نعطي لليد العاملة في الزراعة قسطها من الرعاية، تلك اليد التي تعيش في الريف ولا تغادر الريف ويقوم على أكتاف ذويها صرح الثروة القومية للبلاد

فان كنا ننشد إصلاحاً فلنعن بالطفولة في الريف والحواضر ولتكن عنايتنا سابقة مبكرة فالطفل في حاجة الى العناية منذ نشوئه جنيناً في بطن أمه . وكلما نضج احتاج الى لون من الرعاية جديد يلائم تطوره ونموه . وما دامت أغلبية الامهات عندنا أميات لم يصلن بعد الى لون من المعرفة ، فعلى الدولة واجب النهوض بالعبء وذلك بانشاء مؤسسات كافلة لتربية الاطفال ورعايتهم حتى تجنبهم خطر الحضانة الضارة وأثر الأم الجاهلة

على ان إنقاذ الطفولة في مصر يحتاج الى برنامج مرسوم تعين له فترة من الزمن ينفذ خلالها، لا يتأثر بتغير الحكم ولا تشغلنا عنه الأحداث والمشاغل . ويجب ان يكون هذا البرنامج وليد الدراسة العميقة فيقدر المال اللازم له وتحشد له قوى الأمة . ولابد أن يكون متناولاً الطفل من مبدئه الى تمام نضوجه فلا نغفل ناحية ما من النواحي التي تعرض صحته للضعف وخلقه للانحلال وتربيته للهوى والعبث . وأني لأنادي بوجوب التفكير في هذا البرنامج وأنا أرى الأمم تجري الى الامام في ميدان الطفولة بسرعة الطيران . فكم ترقب ما يُعد رجوعاً القهقرى بسرعة الطيران كذلك — فاذا كانت هناك بقية من أمل في الاصلاح فليكن أول ما نعنى به شئون الطفولة . والله يعين